

الفصل السادس

التجارة

ـ مدخل

أولاً: مواد التجارة

ثانياً: العلاقات التجارية للمملكة الإشكانية:

١- علاقة الإشكانيين مع الصين.

٢- علاقة الإشكانيين مع الرومان.

ثالثاً: طرق التجارة:

١- طريق التجارة البري (طريق الحرير).

٢- طريق التجارة البحري (طريق التوابل).

٣- التنافس الدولي على طريق التوابل.

٤- الإشكانيون على طريق الحرير.

obeikandi.com

مدخل:

شكلت التجارة مصدراً هاماً من مصادر الدخل في العصر الفرثي، وكان للمملكة الإشكانية علاقات تجارية مع بلاد الهند والصين في الشرق، ومع الرومان في الغرب^١.

وأدى الموقع المتوسط للمملكة الإشكانية بين الرومان في الغرب، والصين والهند في الشرق، إلى تبوئها دوراً رئيسياً في التجارة وتبادل المنتجات، وهذا ما جعل منها مركزاً تجارياً هاماً، ودفع بالدول المجاورة إلى كسب ودها، والحفاظ على علاقات حسنة معها، ولكن هل اتسمت العلاقات بالسلام الدائم؟ وهل قبلت جميع الأطراف شروط التعامل معها؟.

من المرجح أن العداء المتوارث بين الإيرانيين الراغبين بالتوسع غرباً واليونان والرومان الراغبين بالتوسع شرقاً، شكل المحور الرئيسي للعلاقات بين الطرفين، ودفع الجانبين للعمل إما لاستغلال الطرف الآخر، أو للحد من الأرباح التي يجنيها، وقد وصل تطور الأحداث لمحاولة الرومان الوصول إلى الشرق دون وساطة الدولة الإشكانية، فكيف كان حال التجارة إبان الحكم الفرثي؟.

أولاً: مواد التجارة:

كانت البضائع التجارية الصينية الأكثر أهمية الحرير الصيني، والجلد، كما كانت بضائع الهند على أهمية كبيرة، فجاء منها العطر والفلل والمعادن والصباغ والمستحضرات الطبية^٢.

وكانت خيوط الحرير تمثل مورداً مهماً من موارد الثروة، حيث نُسجت

(١) دياكونوف، المرجع السابق، ص ٩٦-٩٧. فيل (أرنست)، تدمروطريق الحرير، ترجمة إيمان ستديان، مجلة الحوثيات الأثرية العربية السورية، عدد خاص بوقائع الندوة الدولية حول تدمر وطريق الحرير، المديرية العامة للأثار والمتاحف، دمشق، سورية، ١٩٩٦م، العدد ٤٢، ص ٩٤.

(٢) دياكونوف، المرجع السابق، ص ٩٦-٩٧. فيل، المرجع السابق، العدد ٤٢، ص ٩٤.

أصنافٌ متعددة ومتنوعة من الحرير الطبيعي الجميل الملون. وبقيت شعوب الشرق الأقصى تحتكر صناعة الحرير وتصدره لتجني الأرباح الطائلة من تجارته، حتى تعرفت الشعوب الأخرى إلى طرق للوصول إليه في مرحلة متأخرة من التاريخ^١.

وتميز الحرير بلونه الأبيض الضارب إلى الصفرة، وخصائصه المتميزة العديدة من نعومة ومتانة وشفافية جذابة وجميلة، ولكل ذلك حرص الأغنياء على شرائه للظهور به بمظهر الترف والغنى والجمال^٢.

من الطبيعي أن تحوز ميزات الحرير على اهتمام كبير من قبل الأغنياء، وذلك لأنه شكل خاصية ميزت الأغنياء القادرين على شرائه لغلاء ثمنه، ولكن متى استخدم الإنسان الحرير؟ وما سبب الطلب المتزايد عليه في روما؟

استخدم الحرير في صناعة الملابس الحريرية التي كانت مطلوبة في روما، منذ القرن الأول الميلادي ليس فقط للنساء بل للرجال أيضاً، حيث ارتدوها للظهور بمظهر العظمة والجلال وإثارة شعور التقدير والإعجاب في نفوس الآخرين^٣.

إن استخدام الحرير في حرفة النسيج خلال القرن الأول لا يعني أن الحرير لم يكن معروفاً من قبل، فقد بينت الاكتشافات الأثرية الحديثة عن الحرير الصيني أنه وجد منذ النصف الأول من الألف قبل الميلاد، في مقابر التاي في الصين^٤.

وكانت ندرة الحرير وارتفاع ثمنه يحول دون حياكة الملابس من الحرير

(١) زهدي (بشير)، طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل، مجلة دراسات تاريخية، عدد خاص طريق الحرير طريق الحوار، دمشق، كانون الأول، ١٩٩١م، العدد ٣٩-٤٠، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) زهدي (بشير)، طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، عدد خاص بوقائع الندوة الدولية حول تدمير وطريق الحرير، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، سورية، ١٩٩٦م، العدد ٤٢، ص ١٣٢.

(٣) زهدي، طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل، مجلة الحوليات الأثرية، العدد ٤٢، ص ١٣٢. زهدي، طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٣٩-٤٠، ص ١٢١-١٢٠.

(٤) براونستون (ديفيد)، فرانك (أيرين)، طريق الحرير، المجلس الأعلى للثقافة، مطبعة الأهرام، مصر، ١٩٨٦م، ص ٦٧-٩٩.

الصافي، فلجأ الحائكون إلى مزجه بخيوط أخرى أكثر توفراً وأرخص ثمناً كالخيوط الكتانية على سبيل المثال، وكثيراً ما كانوا يضطرون إلى إعادة استخدام الخيوط الحريرية أكثر من مرة^١.

إن أسباب ندرة الحرير مجهولة، فما دامت الصين المنتج والمحتكر الرئيسي له، ألم تسع لتطوير زراعة التوت؟ وتعمل على تلبية متطلبات التجارة؟

ربما كانت الأسباب خارجة عن إرادة الدولة، كالعوامل المناخية مثلاً التي تؤثر على الأشجار، وعلى دودة القز المنتج الأساسي للخيوط، وقد يكون الطلب الداخلي على الحرير عاملاً آخر من عوامل ندرة الحرير وغلاء ثمنه، ولكن من ناحية أخرى تدل عملية مزج الحرير بالكتان، وعملية إعادة استخدام الخيوط الحريرية على تطور كبير في مجال حرفة النسيج.

وكانت التجارة مع الصين من أهم العوامل التي ساعدت على تطور حرفة النسيج في الدولة الإشكانية^٢.

يعتقد أن الإنسان في الدولة الإشكانية عرف النسيج منذ زمن بعيد، ولكن وصول الخيوط الحريرية إليها وزيادة الطلب على المنسوجات الحريرية، ساهم في زيادة الاهتمام بأدوات النسيج، (النول)، فتطور بدوره، وحمل سمات ميزته عن النول في بقية أرجاء العالم المعروف آنذاك، ولكن هل اقتصرت مواد التجارة على الحرير؟

لم تقتصر التجارة على الحرير فقط بل كانت هناك مواد تجارية أخرى إلى جانبه في التبادل التجاري كالأحجار الكريمة ومنها اليشب^٣، أوالبجات، الذي

(١) زهدي، طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل، مجلة الحوليات الأثرية، العدد ٤٢، ص ١٣٣. زهدي،

طريق الحرير وتدمير مدينة القوافل، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٤٠، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) خياطة (محمد وحيد)، علاقات تدمير الخارجية تجارياً ودينياً، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، عدد خاص بوقائع الندوة الدولية حول تدمير وطريق الحرير، المديرية العامة للأثار والمتاحف، دمشق، سورية، ١٩٩٦م، العدد ٤٢، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٣) اليشب: هو ضرب من معدن الكوارتز، غير نقى، له عدة ألوان منها الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق إلى الرمادي، يستعمل في صناعة بعض الحلي، ويطلق على معدنين هما

كان يوجد بكثرة في الحافة الغربية لضفاف حوض نهر تاريم^١، وكذلك
الأصداق والودع^٢، التي كان مصدرها على الأرجح من الاتصال بملاحي المحيط
الهندي، عبر جزر ملديف^٣.

يبدو أن التجارة حملت معها المنتجات ذات القيمة، ويمكن أن نضيف سمة
أخرى، وهي أنها كمالية، وتخدم فئة معينة من المجتمع، وهي فئة الأغنياء
القادرين على اقتنائها، وأيضاً تلك المنتجات غير موجودة في المناطق المتجهة إليها.
واستورد الحرير من الصين، وكان اليشب من خوطان^٤، والسجاد من
كشمير^٥ وفارس، والعاج والماس من الهند^٦، كما استوردوا من الشرق القرفة

الجاديت (الجات) والنفريت. غريال، المرجع السابق، ج٢، ص١٩٨٢. برانستون، فرانك، طريق
الحرير، ص٣٢، حاشية رقم ١.

(١) نهر تاريم: تاريم هو إقليم في غرب الصين، يقع بين سلسلتي جبال تيان شان وكون لون،
وتبلغ مساحته ١٣٥٠ ألف ميل مربع، فيه نهر يسمى باسمه. برانستون، فرانك، المرجع السابق،
ص٢١، حاشية رقم ١.

(٢) الودع: نوع من الرخويات البحرية، البطنية الأرجل، تعيش في المياه الدافئة، تستخدم أصداقه
في الزينة. غريال، المرجع السابق، ج٢، ص١٩٤٦.

(٣) جزر ملديف: مجموعة من الجزر البركانية في الجنوب الغربي من ساحل المحيط الهندي،
غريال، المرجع السابق، ج٢، ص١٧٤١. فرزات (محمد حرب)، بين الصين والشام حوار الحضارات
على طريق الحرير، مجلة دراسات تاريخية، عدد خاص طريق الحرير طريق الحوار، دمشق،
كانون الأول، ١٩٩١م، العدد ٣٩ - ٤٠، ص٩٨ - ٩٩.

(٤) مدينة خوطان: أو خوتان محطة تجارية هامة على طريق الحرير، تقع على نهر خوطان، وكانت
تابعة للهون، ثم سيطر الصينيون عليها في القرن الأول الميلادي، واستمروا حتى وصول المسلمين
إلى التبت في القرن التاسع الميلادي. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص١٠٥.

(٥) كشمير: منطقة ذات طبيعة جبلية، تقع إلى الشمال من جمهوريتي الهند والباكستان، وهي
عبارة عن وادٍ تفصله الجبال عن جمهورية الهند، والسهول الواسعة عن الباكستان. الأمين
(حسن): دائرة المعارف الإسلامية، دار المعارف للمطبوعات، دمشق، ط٥، ١٩٩٧م، مجلد ٩،
ص٣٨١. غريال، المرجع السابق، القسم الثاني، ص١٤٦٥.

(٦) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص١٠٢ - ١٠٣.

والفلفل وجلود النمر والعنبر والبخور والأحجار الكريمة والرقيق، وصدروا إليه الأبنوس^١ والزجاج والفخار والعطور والذهب والأقمشة^٢.

إن مقارنة الصادرات والواردات تبين بشكل واضح أنها اقتصرت على البضائع غالية الثمن، وخفيفة الحمل، وكذلك البضائع النادرة في المناطق المنقولة إليها، فحملوا للشرق ما يحتاجه، ونقلوا للغرب التوابل والحريز وزينة الشرق.

وكان الطلب على البخور واللبان^٣ والطيب سبباً لازدهار تجارتها بين الغرب والشرق، ونظراً لحاجة الكنيسة المتزايدة إليه في الطقوس الدينية، فكانت أحماله تتجمع في جنوب شبه الجزيرة العربية، عند موقع تمنع^٤ Thomna، لتتجه شمالاً نحو البتراء^٥ حيث تنفرع إلى فرعين الأول يتجه شرقاً إلى تدمر، والثاني غرباً

(١) الأبنوس: نوع من الخشب، لونه أسود، وهو الخشب الصمغي لعدد من الأشجار الاستوائية التي تنتسب غالباً إلى جنس ديو سبيروس، وهو خشب صلب، يستعمل في المصنوعات الخشبية، وتنتشر أشجاره في آسيا وأفريقيا. غريال، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٠.

(٢) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١١١.

(٣) اللبان: مادة صمغية لها رائحة عطرية يتم الحصول عليها من قلب أشجار معينة تنمو في آسيا وأفريقيا تستخدم بخوراً في المراسم الدينية. مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٩٩٦م، ج ٢١، ص ٦١.

(٤) تمنع: عاصمة دولة قتيان التي قامت في القسم الغربي من الجزيرة العربية الجنوبية، وامتدت أراضيها إلى مضيق باب المندب، وتسمى اليوم تمنع كحلان، أو هجر كحلان، ومن بقاياها السور، المعبد، والقصر، والمقبرة، وبعض المباني. الجرو (أسهمان سعيد): موجز التاريخ السياسي القديم لشبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، مؤسسة حمادة للخدمات و الدراسات الجامعية، إريد، ١٩٩٦م، ١٤٨ - ١٥٠. خريوطلي (شكران)، زكار (سهيل): تاريخ الوطن العربي القديم (الجزيرة العربية)، منشورات جامعة دمشق، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٧٢ - ٧٣. عبد الغني (محمد): شبه الجزيرة العربية، مصر والتجارة الشرقية القديمة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ١٧٩.

(٥) البتراء: تقع خرائب البتراء شرقي الأردن، جنوب غربي وادي موسى، وهي عاصمة الأنباط، ومركز تجاري مهم لتجارة القوافل القادمة من الجنوب عبر شبه الجزيرة العربية، استمر وجودها حتى مطلع القرن الثاني الميلادي. سوسة، العرب واليهود، ص ٣٥٣.

إلى غزة على ساحل المتوسط، أما اللبان فقد استخدم في الطب بشكل كبير^١. وفي هذا دلالة واضحة على المكانة الكبيرة التي استحوذت عليها المعتقدات الدينية، ودلالة غير مباشرة على تطور الطب في تلك المرحلة، وتنوع مواد العلاج. وكان من الطبيعي أن تحظى تجارة المنسوجات بأهمية بالغة وذلك بسبب سهولة نقلها من جهة، وخفة وزنها والحاجة الملحة لها من جهة أخرى، فمن غير المستغرب أن تحتل هذه التجارة مركزاً ريادياً عبر مسافات شاسعة امتدت من الصين إلى الدولة الإشكانية، حيث قام الإشكانيون بنقل المنسوجات إلى مراكز التجارة في الغرب مثل دورا وأوروبوس وتدمر، التي كانت تشكل أحد أهم مراكز طرق الحرير التجارية حتى عام ٢٧٣م، حيث وضع الرومان حداً لوجودها^٢.

من المرجح أن المنسوجات المشار إليها، هي المنسوجات الحريرية، وذلك لتوفرها في الشرق وندرتها في الغرب اليوناني والروماني، وهنا تجدر الإشارة إلى الدور الكبير الذي شغلته الدولة الإشكانية بسبب موقعها الاستراتيجي المتوسط في نقل هذه البضائع، وفي جباية الرسوم عليها، ناهيك عن المنسوجات التي كانت تضيفها للمنسوجات الشرقية، ويقف على رأسها السجاد والبسط.

والسؤال ألم تتأثر التجارة بالأوضاع العامة في البلاد المارة بها؟ بالفعل كان التبادل التجاري مرتبطاً بالظروف الداخلية للمملكة الإشكانية، والإمبراطورية الرومانية، وكذلك دولة الصين، وكانت الحروب أكثر العوامل تأثيراً عليها، فقد أدت لإضعاف وتيرة التبادل التجاري، وذلك لأن الجيوش تسلك الطرق التجارية نفسها، لذلك ضعفت عمليات التبادل التجاري في فترات الاضطرابات، والثورات الداخلية التي شهدتها الدول القائمة على طرق التجارة^٣.

(١) زهدي، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل، مجلة الحوليات الأثرية، العدد ٤٢، ص ١٣٣.

(٢) خياطة، المرجع السابق، العدد ٤٢، ص ١٦٤.

(٣) رضايي، كنجينة تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٩. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠٢ - ١٠٣. شعث (شوقي)، طريق البخور والحرير، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، عدد خاص بوقائع الندوة الدولية حول تدمر وطريق الحرير، المديرية العامة للآثار

وما دامت التجارة تتأثر بكل ذلك، ألم يكن هناك ما يحفظ للتجار حقهم؟ وهل وجدت قوانين تنظم الحركة التجارية في أوقات الاضطرابات والحروب؟ ثم ما مصير أصحاب القوافل التجارية المارة عبر أراضي العدو عند قيام الحرب؟ ربما تتضح الإجابة عن الأسئلة السابقة من خلال إلقاء الضوء على علاقات الدولة الإشكانية مع الدول المجاورة لها.

ثانياً: العلاقات التجارية للمملكة الإشكانية:

١- علاقة الإشكانيين مع الصين:

نظراً لأهمية تجارة الحرير عمل الصينيون طوال القرن الأول الميلادي للسيطرة على شمال الصين بما فيها حوض نهر تاريم، وتمكن هؤلاء من السيطرة على المنطقة، وإقامة سلسلة من التحصينات والمحطات لمواجهة هجمات قبائل الهون المتكررة على المنطقة^١.

يبدو أن تجارة الحرير كانت مربحة بشكل كبير، مما حدا بالصينيين إلى العمل والتوسع نحو المناطق التي يكثر فيها شجر التوت ودودة القز، وذلك للحصول على الخيوط ونسجها وتصديرها، بالإضافة إلى ذلك، رغبتهم بالدفاع عن هذه الأماكن وإقامة التحصينات حولها لمنع انتقالها للآخرين.

والمتاحف، دمشق، سورية، ١٩٩٦م، العدد ٤٢، ص ١٥٢. عبد الوهاب (لطفي يحيى): العرب في العصور القديمة، دار المعرفة، ١٩٩٠م، ص ١١١.

(١) رضائي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٩. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠٢ - ١٠٣. شعث (شوقي)، طريق البخور والحرير، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، عدد خاص بوقائع الندوة الدولية حول تدمير وطريق الحرير، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، سورية، ١٩٩٦م، العدد ٤٢، ص ١٥٢. عبد الوهاب (لطفي يحيى): العرب في العصور القديمة، دار المعرفة، ١٩٩٠م، ص ١١١.

(٢) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ٩٩.

وبعد أن سيطر الصينيون على شمال البلاد بدؤوا بالتوسع خارج حدودهم، فتوسعوا نحو الغرب وأخضعوا مملكة كوتشا^١ (كوشان)، وسيطروا على ممرات هضبة بامير^٢ التي اعترف أمراؤها بالسيطرة الصينية على بلادهم، وبذلك أصبح الصينيون على تماس مباشر مع الإشكانيين، وأصبحوا أكثر قرباً من الغرب الروماني، حيث أرسلوا مبعوثاً بمهمة دبلوماسية إلى الرومان لإقامة علاقات تجارية معها^٣ في الوقت نفسه كانت روما تتلمس طرقاً للوصول للشرق^٤.

من المرجح أن علاقة الصينيين مع الدولة الإشكانية كان يشوبها نوع من التوتر والصعوبات، وإلا لماذا فكر الصينيون بتجاوز الإشكانيين في حال كانت علاقاتهم حسنة؟ ربما استاء الصينيون من ارتفاع الضرائب التي يفرضها الإشكانيون على تجارة المرور عبر أراضيهم، فقرروا التخلص من هذه الوساطة والاتصال مباشرة مع الرومان.

وكانت العلاقات الرومانية مع الصين حسنة لدرجة أن إمبراطور الرومان تمنى إرسال مبعوثيه إلى الصين^٥، ولكن ما الذي يمنعه من إرسالهم؟ إذا كان إمبراطور الرومان لا يستطيع أن يحقق أمنيته، فهذا يدل على وجود أسباب جوهرية لمثل هذا المنع؟ نعم لقد كان الإشكانيون يشكلون عقبة أساسية في تطور العلاقات التجارية الصينية الرومانية، إذ سعوا دوماً للسيطرة على طرق التجارة والاستثمار

(١) كوتشا: واحة في آسية الوسطى تقع في حوض نهر تاريم في الصين، وكانت مركزاً تجارياً هاماً على طريق الحرير التجاري الشمالي المار عبر حوض التاريم، برانستون، فرانك، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢) هضبة بامير: منطقة جبلية في آسية الوسطى، يقع معظمها في جمهورية طاجيكستان، وجبل بادخشان، وتمتد إلى الصين، وتعد قمة جبل ستالين فيها أعلى قمم الاتحاد السوفيتي "سابقاً"، ٧٥٠٠م، غريال، المرجع السابق، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) دياكونوف، المرجع السابق، ص ٩٥. Herrmann, op, cit, p 4.

(٤) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٦. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠٠. Herrmann, op, cit, p 4.

(٥) رضايي، المرجع السابق، جلد ششم، ص ٦٠٦. Herrmann, op, cit, p 4.

بتجارة الحرير إن جاز التعبير^١.

وكان مثيراً أن يتطلع الصينيون للاتصال بحضارة البحر الأبيض المتوسط، ولكن على ما يبدو ساورت الإشكاليين الشكوك حول تحالف يمكن أن يحصرهم ضمن فكي كماشة إذا ما تم أي اتصال دبلوماسي بين الصين التي أصبحت على حدودهم الشرقية، والرومان الذين كانوا يواجهونهم على الجهة الغربية، ولهذا بذلوا قصارى جهودهم لمنع دخول أي وسيط آخر سواهم على طرق الحرير البرية^٢.

إن ردة الفعل الإشكالية حالة طبيعية، وذلك لمجموعة من العوامل منها: الحفاظ على مكانة بلادهم التجارية، وقدرتهم على السيطرة على التجارة بين الصين والرومان، وتخوفهم من فقدان العوائد التي تعود بها التجارة على بلادهم. وهكذا فضل الإشكاليون الاتصال بالصين على أن يتركوها تتجاوزهم، وتسعى لإقامة علاقات تجارية مع الرومان.

وأقام التجار الإشكاليون علاقات تجارية هامة مع الصين في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، وتعززت تلك العلاقات بالسفارات التجارية القادمة من الدولة الإشكالية والمحملة بالهدايا الثمينة^٣، إلى البلاط الملكي الصيني. وبالمقارنة مع العلاقات التجارية الإشكالية الهندية، التي لم تكن على سوية واحدة كالعلاقات مع الصين، فقد حافظ الإشكاليون على عبور الطرق التجارية البحرية، عبر الخليج العربي والطرق البرية عبر بلخ^٤، حيث وصل هذان الطريقان إلى مصب نهر السند^٥.

(1) أبو عساف (علي)، طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، عدد خاص طريق الحرير- طريق الحوار، دمشق، كانون الأول، ١٩٩١م، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ٧٧.

(2) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٦. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠٠. Herrmann, op, cit, p 4.

(3) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٤. سايكس، المرجع السابق، جلد أول، ص ٤٥٥.

(4) بلخ: تقع في مقاطعة خراسان، بنيت من الطين في سهل مستو، وهي اليوم من مدن أفغانستان. لسترنج، المرجع السابق، ص ٤٦٢ - ٤٦٤.

(5) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٤. Herrmann, op, cit, p 4.

لقد استغلوا موقع بلادهم المتوسط بين الرومان والصين، فتاجروا بالحرير الصيني القادم من الشرق، والبلور الروماني، والكتان، والمنسوجات الذهبية، والفضية، والأواني الفخارية المتجهة إلى الشرق، وبذلك جنوا الكثير من الأموال والذهب، حيث لزم على طرق التجارة التي تربط الشرق بالغرب المرور عبر الأراضي الإشكانية، وهذا ما مكنهم من السيطرة والتحكم بالتجارة^١.

وهكذا كان الإشكانيون صلة الوصل بين الشرق والغرب، ولم تكن قوتهم هي السبب؛ بل كان لموقع بلادهم المتوسط بين الطرفين دور بارز في سيطرتهم على التجارة، كذلك فإن امتداد بلادهم إلى الجنوب نحو المحيط الهندي جعل إمكانية تجاوزهم أمراً صعب المنال، ولذلك كانوا الوسطاء بفعل موقع بلادهم.

وما يثير التساؤل هنا: ألم يحاول الرومان والصينيون التخلص من هذه السيطرة الإشكانية؟ وما هي وسيلة الإشكانيين لاستمرار السيطرة على هذه الطرق؟ وما هو موقف الصين من تصرف الإشكانيين تجاه المواد المستوردة من روما وإليها؟

في ضوء المعلومات المتوفرة يمكن الإجابة على بعض من هذه الأسئلة، حيث سعى الإشكانيون دوماً للسيطرة على دور الوسيط بين الشرق والغرب، وذلك لضمان استغلال الطرفين، وجعلهم يقتنعون بالأسعار التي يفرضونها عليهم، كما أن التجارة تأثرت كثيراً بالعلاقات الإشكانية الرومانية التي غالباً ما انطبعت بطابع الحروب والمعارك، وهنا تأثرت طرق التجارة كثيراً بسبب انعدام الأمن، وحتى المنظم منها لم يكن آمناً فانعكس ذلك على جميع الأطراف بما فيها الدولة الإشكانية^٢.

يعتقد أن سياسة الدولة الإشكانية كانت تحكمها الظروف، وطبيعة العلاقات الدولية في تلك المرحلة، وربما أوجدت محاولة الصينيين إرسال البعثات

(١) أبو عساف، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ٧٧.

Rawlinson, op, cit, Volume III, pp268-271

(٢) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٦.

للتعاون مباشرة مع الرومان ردة فعل لدى الإشكانيين مفادها الحفاظ على علاقات سيّئة بين الصين والرومان، وبالتالي لا يستطيع الطرفان الاستغناء عن خدمات الدولة الإشكانية، التي جنت الأرباح الطائلة من خلال سياستها هذه.

وبالانتقال إلى حالة المدن التجارية على هذه الطرق فقد تميزت هذه المدن بغنى والازدهار، ويشهد على ذلك بقايا تلك الأبنية التي ما تزال شاهداً على عظمة البناء وروعته وفخامته.¹

من المعروف تاريخياً أن عوامل ازدهار المدن القديمة قد انحصرت في عاملين أساسيين: الأول: هو الزراعة أي وفرة الأراضي الزراعية والمياه، وبالتالي القدرة على توفير الغذاء لسكان هذه المدن. والثاني: هو العامل التجاري الذي مكن سكان هذه المدن من إيجاد فرص عمل كبيرة تساعدهم على الحياة، وعليه فإن ازدهار المدن كان نتيجة طبيعية لازدهار التجارة، ووفرة السلع، وتحسن الأوضاع الاقتصادية لسكانها.

٢- علاقة الإشكانيين مع الرومان:

كان هناك تبادل تجاري بين الدولة الإشكانية وروما، حيث استوردت الدولة الإشكانية المعادن المختلفة من روما، وصدرت لها الأنسجة والتوابل. وكانت بابل مصدر إنتاج النسيج الرئيسي، والذي شمل الحرير المزخرف بالألوان المختلفة، والسجاد الملون². بالإضافة إلى العطور والتوابل التي كانت تستخدم بشكل كبير من قبل السيدات الرومانيات، وتشكل رمزاً من رموز الطبقة الرفيعة في المجتمع الروماني³.

وكانت روما ترسل المصنوعات المعدنية والزجاج، والزجاج الملون، الذي يشمل جميع الأواني والزجاج المنقوش والقلائد، وكانت العلاقات التجارية مع الرومان تقوم على سياسة حذقة مع الإشكانيين الذين عملوا للحصول على أكبر كمية

(1) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٩.

2 Rawlinson, op, cit, Volume III, pp268-271.

3 Rawlinson, op, cit, Volume III, pp268-271.

ممكنة من الذهب الروماني لمنحهم البضائع القادمة من الشرق عبر بلادهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كمية الواردات من الرومان لا تتوازي مع كمية الصادرات القادمة إليها من الدولة الإشكانية^١.

وتحرك الرومان للاتصال بالشرق الأقصى منذ أن وصلت أقدامهم منطقة الشرق في القرن الأول قبل الميلاد، فحاول الرومان أن يرثوا التقاليد التجارية لدول المنطقة، ولاسيما البطالمة الذين كانوا يتعاملون مع الممالك التجارية العربية وعلى رأسها الأنباط^٢ واليمن، ومن هنا حاولت روما وضع يدها على التجارة البحرية القادمة من الشرق عبر المحيط الهندي إلى البحر الأحمر وذلك لتأمين وصول التوابل والعطور والأقمشة النفيسة من الهند والشرق الأقصى، وكان التجار العرب والهنود يحتكرون تجارة هذه البضائع كل في منطقة نفوذها^٣، لكل ذلك أراد الرومان السيطرة عليها وبذلوا الذهب والفضة في سبيل ذلك، فهل استطاعوا؟^٤.

في الحقيقة بذل الرومان ما استطاعوا من دبلوماسية في سبيل الوصول لمنتجات الشرق، وعندما فشلوا لجؤوا إلى القوة من أجل السيطرة على التجارة القادمة عبر المحيط الهندي إلى الخليج العربي، ولكن هل تمكن الرومان من إقصاء الإشكانيين مثلما تمكنوا من إقصاء العرب، وكسروا احتكارهم للتجارة؟^٥.

(١) دياكونوف، المرجع السابق، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) الأنباط: لا توجد معلومات أكيدة حول موطن الأنباط الأصلي، وأقدم ذكر لهم يعود للقرن السادس قبل الميلاد، حيث قطنوا في منطقة وادي موسى، جنوب شرقي البحر الميت، وسميت بلادهم العربية الصخرية لدى اليونان والرومان، واعتمدوا في حياتهم على التجارة، مستفيدين من موقع بلادهم، واستمر وجودهم حتى مطلع القرن الثاني الميلادي، حيث قضى الرومان على عاصمتهم البتراء. خريوطي، زكار، المرجع السابق، ص ١٠٤ - ١١٤.

(٣) جبران (نعمان محمود)، محاولات المغول السيطرة على طريق الحرير، مجلة دراسات تاريخية، عدد خاص طريق الحرير طريق الحوار، دمشق، كانون الأول، ١٩٩١م، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٣٨. رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٦. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠١.

حاول الرومان السيطرة على طرق التجارة، وحرمان الإشكانيين منها، ولذلك قرروا في عام ٥٢ قبل الميلاد استعمال القوة ضدهم، فكانت المعركة الفاصلة بينهما في حران، حيث انتصر الإشكانيون على جيوش الرومان انتصاراً باهراً، وأبادوا جيشهم وقتلوا قائده كراسوس^١.

يعكس لجوء الرومان للقوة من أجل السيطرة على طرق التجارة الأهمية والأثر الكبيرين للتجارة على بلادهم، كما يدل انتصار الإشكانيين في المعركة، على الدلالة نفسها بالإضافة إلى تنامي القوة الإشكانية لدرجة كبيرة مكنتهم من الوقوف في وجه التوسع الروماني.

ثالثاً: طرق التجارة:

١- طريق التجارة البري (طريق الحرير) :

بعد الاستطلاعات والتتقيقات التي أجريت في كثير من المواقع التاريخية والأثرية في آسيا، تمكن الباحثون من تحديد طريق القوافل التجارية القديمة المعروفة بطريق الحرير، التي كانت تصل بين الصين في الشرق الأقصى، وحوض البحر الأبيض المتوسط، مروراً ببلاد فارس، خلال قرون عديدة امتدت من القرن الثاني قبل الميلاد، وحتى القرن الرابع عشر الميلادي^٢.

وكان المحور العالمي الأكثر أهمية للتجارة الدولية في العالم القديم يمتد من الشرق إلى الغرب، ويليه في الأهمية محور آخر يسير بعكسه من الغرب إلى الشرق، وقد نقلت التجارة المتداولة في طرق هذين المحورين على طرق برية، وبحرية أطلق عليها بعض الباحثين مسمى طريق الحرير نسبة إلى الحرير الصيني الذي كان يعد أنفس سلعة ينقلها التجار على هذه الطرق.

(١) سوسة، تاريخ وحضارة بلاد الرافدين، ج٢، ص٣٩٩.

(٢) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص٩٦.

وكان لطرق الحرير المتجه من الصين شرقاً مساران رئيسيان: أحدهما شمالي وهو طريق الحرير البري الذي يجتاز هضبة بامير وممراتها ويصل إلى سمرقند^١ ومنها إلى مرو فنسا القديمة مروراً بشاهرود^٢ إلى الري، وينطلق منها إلى همدان^٣ فمدن الحدود الإشكانية الرومانية، حيث يتفرع إلى فرعين الأول: يتجه إلى تدمر في سورية، حتى يصل إلى الرومان. وهذا هو طريق الفرات الذي كان يصل بين بلاد الرافدين، وحوض البحر الأبيض المتوسط. وكان هذا الطريق يصل تدمر بالمراكز الكبرى في بلاد الرافدين، وبابل القديمة، والثاني يتجه جنوباً إلى سلوقية دجلة^٤.

ويتفرع عنه عند مرو فرعان الأول يتجه إلى الجنوب حيث يمر بمدينة هراة^٥ ومنها إلى كرمان ثم يصل إلى إصطخر (برسبوليس)، فيعبرها ليحط الرحال في موقع أبلّة^٦ على الخليج العربي. في حين يتجه الطريق الآخر من مرو إلى أقباتان ثم

(١) سمرقند: تقع سمرقند في إقليم الصغد إلى الشرق من بخارى، على مسافة قصيرة من ضفة نهر الصغد الجنوبية. لسترنج، المرجع السابق، ص ٥٠٦.

(٢) شاهرود: تقع مدينة شاهرود في مقاطعة سمنان، إلى الشمال من مقاطعة مازندران، وتحدها من الغرب مدينة دامغان. فرجي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٦٥.

(٣) همدان: أو همدان، هي أكتبانا لدى اليونان، مركز إقليم ماذي. لسترنج، المرجع السابق، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٤) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٥. فيل، المرجع السابق، ص ٩٣. محلي (ساطع)، طريق الحرير وسيلة وصل حضارية بين الشعوب، مجلة دراسات تاريخية، عدد خاص طريق الحرير - طريق الحوار، دمشق، كانون الأول، ١٩٩١م، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ٥١.

(٥) هراة، بلد في خراسان قرب بوسنج. الإصطخري، المصدر السابق، ص ١٤٩ - ص ١٥٠. ابن مسكويه، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٦. المقدسي (محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه محمد مخزوم، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م، ص ٢٤٢. الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر، دار السراج، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، مادة هراة، ص ٥٩٤.

(٦) أبلّة: سميت قديماً أبولوجوس، وهي موقع في جنوبي العراق، قرب الخليج العربي، على نهر يحمل الاسم نفسه. لسترنج، المرجع السابق، ص ٤٣+ حاشية رقم ٢.

إلى دورا اوروبوس على الفرات ليكمل نحو تدمر وأنطاكية^١ على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط^٢، حيث يواصل بحراً إلى أوروبا. وتقع على هذه الطريق سلسلة كبيرة من المدن والعواصم العريقة استفادت من وجودها على مساره، فكانت مراكز تجارية، وحضارية مهمة أسهمت في التواصل الاقتصادي، والثقافي بين الشعوب على مر التاريخ^٣.

أما المسار الآخر فيعرف بالمسار الجنوبي، وهو طريق التوابل الذي يبدأ من ميناء كانتون^٤ بالصين، ويعبر بحر الصين، ثم يلتف حول سواحل شبه القارة الهندية، ليدخل في البحار المحيطة بالجزيرة العربية، حيث يتفرع إلى فرعين: أحدهما يتجه شمالاً في مياه الخليج العربي، ليصل إلى بلاد فارس، وبلاد ما بين النهرين، وفرع آخر يتجه غرباً إلى سواحل اليمن، والحبشة، ثم يسلك البحر الأحمر ليصل إلى سواحل الحجاز، ودول حوض البحر الأبيض المتوسط، ويتجه غرباً إلى أوروبا، وشمال أفريقيا، وهذا هو الطريق الذي حاولت روما السيطرة عليه لتنافس الإسكانيين.

وتتفرع من هذين المسارين الرئيسيين طرق فرعية كثيرة تذهب في جميع الاتجاهات، فتصل إلى الأمم الواقعة إلى الشرق من الصين، وإلى أقصى شمال

(١) أنطاكية: تقع في شمالي غربي سورية قرب مصب نهر العاصي في وسط سهل العمق، وتبعد عن مدينة حلب بحدود ٩٥ كم. سُميت قديماً أنطاكية دفني وأنطاكية على العاصي، كما دُعيت تيترابوليس لكونها واحدة من المدن الأربع التي بناها سلوقس نيكاتور الذي أراد أن يُشرفها باسم والده أنطوخوس، كما شُرف مُدناً أخرى بأسماء أسرته وأقاربه فبنى سِتْ عَشْرَةَ مدينةً وسَمَّاهَا أنطاكية. ومن الأسماء الأخرى لأنطاكية أنطاكية سورية، لكونها عاصمة سورية، واسم أثينا سورية، وأنطاكية الكبرى، والجميلة، ومدينة الله، ومدينة الله العظمى، ودرّة الشرق، ومدينة المثلث، وأمّ المدن. الحموي، المصدر السابق، مادة أنطاكية، ج١، ص ٣١٦.

(٢) برانستون، فرانك، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٣) برانستون، فرانك، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٤) كانتون: مدينة في جنوبي الصين، ومركز تجاري هام، تقع على رأس دلتا نهر تشوجيانغ "نهر اللؤلؤ". غريال، المرجع السابق، ج٢، ص ١٤٣٦.

أوروبا، وأدغال أفريقيا. وعلى هذه الطرق كانت تنتقل إلى جانب البضائع الثقافات والأفكار والدعاة والرحالة والمكتشفون والمغامرون والباحثون عن الحقيقة، ولذلك فإن طرق الحرير هي في حقيقتها طرق التجارة الدولية، والحوار الحضاري بين الشعوب.

وذلك لأن القوافل لم تنقل البضائع التجارية فقط، بل نقلت أيضاً الثقافات والعادات والتقاليد، وبذلك كانت طريق الحرير وطريق التوابل طرقاً تجارية وحضارية معاً.

٢ - طريق التجارة البحري (طريق التوابل) :

لم تقتصر الطرق التجارية على الطرق البرية، بل وجدت طرق بحرية ساهمت في نقل التجارة من الشرق إلى الغرب، خاصة بعد أن عرف الرومان سر الرياح الموسمية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد، حيث اخترقت عباب البحار السفن التي زادت حمولتها على الـ ٥٠٠ طن؛ حيث تبحر عبر المحيط الهندي لتصل إلى الشواطئ الهندية^١.

فطريق التجارة البحري، - وهو طريق التوابل - بعد عبوره بحر الصين، والمحيط الهندي يصل إلى الخليج العربي حيث يتفرع إلى فرعين الأول: عبر الخليج العربي، والثاني: إلى خليج عدن، حيث يقوم التجار الرومان بشراء البضائع الصينية والهندية، ويعبرون بها البحر الأحمر إلى ميناء الإسكندرية، في البحر الأبيض المتوسط^٢.

وبعد استيلاء الرومان على مصر وسورية سيطروا على الطريق البحري للتوابل والحرير، فسيطروا على البحر الأحمر وبحر العرب، وهكذا تمكنوا من الحصول على منتجات الشرق من الجنوب بدل الشمال، وهنا في الجنوب كان التجار العرب يسيطرون على التجارة بين الخليج العربي وخليج عدن، فبعد وصولها إلى الخليج

(١) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١١٠.

(٢) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٥.

العربي تحمل البضائع من موقع جرها^١ إلى تاج^٢ ومنها إلى دومة الجندل فالبتراء، وفي العصر اليوناني غدت أنطاكية نهاية طريق القوافل التجارية القادمة من الجنوب^٣. أو تصل إلى اليمن حيث ميناء عدن ومنها تتفرع إلى فرعين الأول بحري عبر البحر الأحمر حيث تصل إلى ميناء أيلة، والثاني بري عبر تهامة إلى الشمال.

وتمتع طريق التوابل بمميزات فاقت في أهميتها الطريق البري، فهو بدون شك أقصر وأقل تكاليف وضرائب ورسوماً^٤. وقد استغرق الطريق البحري إلى الهند قرابة أربعين يوماً^٥.

ويبدو أن الرومان حاولوا الاستغناء عن طريق الحرير والاستعاضة عنه بطريق التوابل، للتخلص من سيطرة الإسكانيين على طريق الحرير، ويبدو أنهم لم يتمكنوا من التخلص من سيطرتهم على طريق الجنوب أيضاً؛ إذ تنعدم آثار وجود سفن رومانية تجاوزت الخليج العربي شرقاً.

وعمل الإمبراطور أوكتافوس على الاستيلاء على شبه الجزيرة العربية وعلى البحار المحيطة بها ولكنه فشل في تحقيق ذلك الحلم، وشغلت نفسه بالشائعات التي تتردد منذ القدم، بأن العرب قوم واسعوا الثراء، وأنهم يستبدلون الفضة والذهب بعطرتهم وحجارتهم الكريمة، دون أن ينفقوا على الغرياء ما يحصلون عليه، ولذلك جهز القيصر في عام ٢٥ - ٢٤ ق م، حملة بقيادة حاكمه على مصر

(١) جرها: هي موقع العقير الحالي على ساحل الإحساء. فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩-٤٠، ص ١١٢.

(٢) تاج: أو تاج، تقع على مسافة ٩٠ كم من ميناء الجبيل على ساحل الخليج العربي، وقامت في موقع وادي المياه. بوتس (دانيل، ت): الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة إبراهيم خوري، قام بتصحيحه وتنقيحه والتعليق عليه أحمد عبد الرحمن السقاف، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ج ٢، ص ٦٩٧.

(٣) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١١٢.

(٤) فيل، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٥) رضايي، كنجينه تاريخ إيران، جلد ششم، ص ٦٠٤.

إيليوس غالوس^١، دخلت شبه الجزيرة العربية من شمالها الغربي، وسارت برا حتى سواحل البحر الأحمر الجنوبية، وكان نصيبها في نهاية المطاف الإخفاق، ولكن هذا الإخفاق دفع القيصر إلى تشجيع الملاحين الرومان على ارتياد البحار العربية، والوصول إلى الهند مباشرة، واستبعاد الوساطة العربية في تجارة الهند، والصين، فزاد عدد السفن التي تسافر سنوياً إلى الهند في عهده إلى مائة وعشرين سفينة.

٢- التنافس الدولي على طريق التوابل

وقد حاول الإيرانيون منذ أقدم العصور مزاحمة العرب على منافع هذه التجارة، فقد جهزوا حملة في عهد إمبراطورهم دارا الكبير **Darius** (٥٢١ - ٤٨٥ ق م) نجحت في الدوران حول شبه الجزيرة العربية، من الخليج العربي، إلى خليج السويس، ووصلت إلى مصر بهدف السيطرة على مسار طريق الحرير البحري: مسار الخليج العربي، ومسار البحر الأحمر، وبالتالي احتكار تجارة الشرق الأقصى، وإقصاء عرب الجزيرة العربية عن الميدان، ولكن حملة الملك دارا لم يدم نجاحها، ولم تتكرر مرة أخرى في التاريخ.

كما حاول اليونانيون أيضاً فرض سيظرتهم على الملاحة في البحر الأحمر، وفي الخليج العربي، وكانت لهم مستوطنة في جزيرة فيلكة^٢، كما أن الإيرانيين في

(١) إيليوس غالوس: **Aelieus Gallus** هو القائد الروماني الذي كلفه الإمبراطور أوكتافيانوس بغزو شبه الجزيرة العربية للسيطرة على تجارتها، في عام ٢٤ قبل الميلاد، وذلك بمساعدة الأنباط وملوكهم عبادة الثالث، وكان قوام الحملة التي قادها عشرة آلاف جندي من الرومان والمصريين، بينهم ألفان من الأنباط، وخمسمئة من اليهود، وقد أخفقت الحملة بسبب مقاومة العرب لها. الجرو، المرجع السابق، ص ١٩٦ - ١٩٩.

(٢) داريوش: من أعظم ملوك الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، اشتهر بعبقريته الإدارية، ومشروعات البناء العظيمة، تولى العرش عام ٥٢٢ ق م، وقضى على الثورات التي قامت ضده في عيلام وبابل وميديا، وأرسل حملة للسيطرة على بلاد اليونان، لكنه هزم في معركة المارثون عام ٤٩٠ ق م. فرعون (محمود): داريوس، الموسوعة العربية، دمشق، ط ١، ٢٠٠٤ م، مجلد ٩، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) فيلكة: جزيرة في أعالي الخليج العربي، قبالة خليج الكويت، سميت قديماً أيكاروس. عبد الغني، المرجع السابق، ص ٩٥.

العصور التالية استطاعوا فرض سيطرتهم على تجارة الصين والهند المارة بالخليج العربي، ولكن سيطرتهم لم تحرم العرب من المشاركة الفاعلة في حركة التجارة، نظرا لخبرتهم الطويلة، ومعرفتهم الواسعة ببناء السفن والإبحار في مياه المحيط الهندي، ولحاجتهم إلى موانئه التي كانت تمثل نقطة الانطلاق لمراكب الصين والهند.

وفي هذا دليل على التنافس التجاري الكبير بين العرب والإيرانيين واليونان والرومان على التجارة والسيطرة عليها، بل الاستئثار بها، ولهذا سعى الجميع وبكل الوسائل لحرمان الآخرين من الاستفادة منها وفرض ما يشاؤون من ضرائب لمنحهم إياها.

ويستمر التنافس بين العرب والإيرانيين على تجارة الشرق في مد وجزر في العصور التالية ففي أيام الإشكانيين أصيبت تجارة الخليج القادمة من الهند والصين بنوع من الانكماش، نتيجة تشجيع الإشكانيين لنقل تجارة الصين على الطريق البري الذي يمر عبر أراضيهم.

وكان الإشكانيون يجوبون مياه المحيط الهندي منذ العصور القديمة السابقة للميلاد، وكانت سفنهم تقوم برحلات طويلة فيما بين الموانئ الصينية، وموانئ الهند الغربية، ومثل ذلك كان يفعل العرب، فقد كانت سفنهم تبخر من موانئ الخليج العربي، وساحل اليمن إلى موانئ الهند الغربية، حيث يلتقون هناك بالتجار الصينيين، ويحصلون منهم ومن التجار الهنود على بضائع الصين والهند، ويبيعونهم بضائع الجزيرة العربية الثمينة التي كان من أهمها البخور، والعطور، والنحاس، واللبان، واللؤلؤ.

قد تكون هذه المحاولة من الإشكانيين للحد من وصول منتجات الشرق إلى روما عبر وسطاء غيرها، كالعرب مثلاً، وكذلك احتكار غير مباشر لتجارة الشرق، ولا يغيب هنا أن اتخاذ هذه الخطوة دليل على تمكن الرومان من الوصول لمنتجات الشرق عن طريق الالتفاف حول الممتلكات الإشكانية.

ولا تشير المصادر التاريخية، والأدلة الأثرية إلى وصول سفن العرب إلى سواحل الصين، أو وصول سفن الصينيين إلى موانئ الجزيرة العربية في الحقب التاريخية السابقة للميلاد، أو في القرون الأولى الميلادية، ولكنها تشير إلى أن البضائع

الصينية المنقولة على طريق التوابل، كانت تصل إلى الهند على السفن الصينية، والهندية ثم تجلب إلى موانئ الجزيرة العربية من أسواق الهند وسيلان على سفن عربية وفارسية وهندية.

وما يثير التساؤل هنا لماذا لم تكمل السفن الصينية طريقها غرباً؟ وما هو سر غياب السفن الرومانية أمام هذا التنوع في السفن التجارية؟

ربما كان للسياسة الإشكائية دور في خلق الصعوبات والعراقيل الكثيرة التي دفعت الرومان للابتعاد عن العمل بالتجارة مع الشرق، والاكتفاء بشراء هذه البضائع من التجار الإيرانيين أو العرب على رغم ارتفاع ثمنها. وربما كان لاحتكار عرب اليمن لهذه التجارة والصراع بين الممالك اليمنية القديمة للسيطرة على الطرق التجارية ومواد التجارة دور في ذلك.

وطوال آلاف السنين، كان الشرق مصدراً لقائمة من السلع الثمينة الأكثر رواجاً في تجارة العالم القديم، وبالإضافة إلى إنتاجهم لهذه السلع، لعب سكان الشرق دوراً مهماً في نقل هذه السلع الثمينة، إلى المستهلكين لها في كل موقع من قارات العالم المعروفة آنذاك.

خط الإشكائيون على طريق الحرير:

ورث الإشكائيون ما عرفه الشرق القديم من تقاليد وخبرات في ميادين التجارة، فاستفادوا من طرق الأحمينيين البرية التي استخدموها في سبيل خدمة تجارتهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر تلك الطريق التي شقها داريوش ووصلت سوسة في جنوب غرب إيران، مع مدينة أفسوس^١ على بحر إيجة^٢، ووصل طولها إلى نحو ٢٤٠٠ كم. وكانت هذه الطريق تجارية وعسكرية فمر التجار عليها،

(١) أفسوس: مدينة على شاطئ أسية الصغرى، كانت من أعظم المدن الأيونية، ازدادت أهميتها ونشاطها التجاري مع خضوعها للسيطرة الفارسية، واستمر ازدهارها في العصر الهلنستي والروماني، وأهم معلمها معبد أرتميس. غربال، المرجع السابق، ج١، ص ١٧٩.

(٢) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠١ - ١٠٢.

وكذلك البريد وأخبار المقاطعات الفارسية إلى مركز الإمبراطورية الأخمينية^١.

واستفاد الإشكانيون أيضاً من الطرق التي استخدمها اليونانيون في التجارة، ومثال ذلك شبكة الطرق التي شقوها لتصل بين سلوقية دجلة وباكتريا عبر أقباطان ومرو، لتلتقي بالقوافل القادمة من الصين^٢.

ومما لا شك فيه أنهم عملوا على ترميم هذه الطرق وتوسيعها، وفتح المزيد منها، وذلك نتيجة تطور الحياة العامة في الشرق، وازدهار التجارة التي تشكل الطرق عماد رواجها، وتقدمها.

وكان لوصول الإشكانيين للحكم في المنطقة أنهم وقفوا سداً منيعاً في وجه التوسع الروماني الذي كان يسعى للاتصال المباشر مع الصين^٣.

واحتكروا لأنفسهم دور الوسيط في التجارة الدولية، فقد نقلوا السلع التجارية بين الشرق ودول البحر الأبيض المتوسط حتى روما^٤، وفرضوا على القوافل العابرة الرسوم والمكوس. وقد جعلوا من مدينة هيكاتوم بوليس عاصمة لهم، وذلك لوقوعها على الطريق التجاري الواصل بين سلوقية دجلة في الغرب، وباكتريا في الشرق، التي تتصل بدورها بطريق بلاد كوتشا في آسية الوسطى، وبالتالي تكون قد اكتملت حلقات الاتصال مع شمالي الصين^٥.

(١) فرعون، المرجع السابق، مجلد ٩، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٤) أبو عساف، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ٧٧.

(٥) فرزات، المرجع السابق، العدد ٣٩ - ٤٠، ص ١٠١ - ١٠٢.